آراء الشيخ أبو الحسن.. اللغوية

بعد أن اضمحل نفوذ العرب والعربية في القرون الأخيرة في الدول الإسلامية والعربية، أخذت اللغة العربية تنحط درجاتها(١)، إلى أن أصبحت منفصلة عن الحياة اليومية، والمكاتب الرسمية، ومجالس الخلفاء والحكام، وركنت إلى أقلام المطرزين، وأصحاب الحرف الأدبية المنمقين. وجاء بعدهم الاستعمار، ففهم أن نهضة اللغة العربية هي نهضة للإسلام، فأخذوا يتآمرون ضد اللغة العربية، حيث صرفوا عنايتهم إلى اللهجات العربية الإقليمية، وحاولوا وضع القواعد المعيارية لهذه اللهجات، لتكون بديلة للفصحى، وخوفوا الناس من الفصحى بأنها صعبة، وليس التمكن من ناصيتها سهلا، ولا طائل في ممارستها؛ لأنه لا علاقة بينها وبين الحياة المعاصرة، ونادوا لكتابة العربية بالحروف اللاتينية، واختاروا لها أنصارا وأعوانا من بني العرب، وطالبوا بخلق اللغة العربية الوسيطة؛ لتكون سهلة ووسطا بين العامية والفصحى، ودعوا إلى استخدام اللغة العامية(٢). ومن مظاهر التآمر ضد اللغة العربية اختفاء المفردات العربية الفصحى من جزء كبير من الحياة، واقتصار اللغة العربية القديمة على الموضوعات الدينية، وفي المواعظ والخطب(٣).

فكل هذا الظواهر السالبة استدعت المعنيين باللغة العربية وبالإسلام أن يفكروا من جديد، ويحرروا العربية من هذه القيود، وأن يجعلوها ذات صلة بالدين الإسلامي الحنيف، ومستجيبة لحاجات العصر ومتطلبات العالم المعاصر. ويعد الشيخ الإمام أبوالحسن الندوي، رحمه اللّه، ممن تصدوا لهذا التيار الجارف، وممن تقدموا بالبديل المناسب لأبناء المسلمين، فكان في ذلك نذيرا وبشيرا، حيث إنه حذر المسلمين من هذه الهجمات الشنيعة، وحيث قام بتوجيه مصير اللغة العربية إلى اللون الإسلامي؛ كتابةً وخطابةً ونقداً ونثراً. وله آراء ذات قيمة بالغة في مسيرة اللغة وتطويرها، ونحن نذكر هذه الآراء من خلال النقاط التالية :

■■ ضرورة صياغة اللغة العربية صياغة دينية في رأي الشيخ:

إن اللغة العربية لغة القرآن والحديث، والتراث الإسلامي الضخم، فليس لأحد أن يكون ذا بصر وبصيرة في الدين بدون التمكن من ناصية هذه اللغة، فلهذا نرى الشيخ الندوي يكرر «إن اللغة العربية هي لغة الإسلام ومفتاح كنوز الكتاب والسنة»(٤) وهذه الناحية تظهر أهمية اللغة العربية.

وهناك ناحية أخرى لفضل اللغة العربية، وهي أن هذه اللغة تحمل أنفس الآثار الأدبية منذ عصور قديمة، فاللغة العربية في رأي الشيخ: «باب تلك المكتبة العامرة الزاخرة، التي تحتوي على أنفس ما أنتجته القرائح البشرية، وأبدعته العقول السليمة، وفاضت به خواطر، وسالت به محابر، من أدب وشعر، وتاريخ وفن، وحكمة، في مساحة زمنية واسعة، كمساحة التاريخ الإسلامي، ومساحة مكانية شاسعة، كمساحة العالم الإسلامي(٥) ولاشك أن القرآن أكسب اللغة العربية البقاء إلى يوم القيامة، وأتاح لها التحرر من قيود الجاهلية، فضلا عن أن حملة الإسلام اتخذوها وسيلة لبثّ دعوتهم الجديدة، فزادوا عليها رونق البيان، وطوروها إلى لغة عالمية، كان يتكلم بها نصف سكان الأرض بعد الفتوحات الإسلامية، يقول الشيخ: «... الثورة العالمية البناءة التي قام بها

الإسلام، استخدم اللغة والأدب سلاحا في دعوته ونشاطاته، استخداما لم تستخدمه أى ديانة أو حركة، فقد كان أفضل دعاة الإسلام وأقوى ممثليه، من ملكوا ناصية البيان، وبرزوا في الخطابة والكتابة في لغته»(٦) فكانت اللغة العربية حينئذ في خطبة الجمعة وفي الخطابات الرسمية والاجتماعية والسياسية، وكانت يتداولها الناس في معيشتهم اليومية، وتصدر بها الدواوين الشعرية، والكتابات الأدبية. وكانت موارد اللغة العربية آنذاك عذبة، نقية صافية، اللفظ الخفيف والتعبير الدقيق الرقيق، مما يطرب الناس ويملؤهم سرورا ولذة، وثقة وإيمانا بعبقرية هذه اللغة، ورغبة في دراستها والتوسع فيها(٧).

إذن كان الفضل في تطور اللغة العربية وخروجها إلى أوسع ما يكون من نطاق - في رأي الشيخ الندوي - للقرآن الكريم ولحديث الرسول ﷺ، الذي كان أفصح العرب(٨)، ولاندفاع حملة القرآن والحديث إلى العالم كله، فكانت حواشي اللغة العربية بيد هؤلاء المسلمين مهذبة، وعباراتها رقيقة، وألفاظها صقيلة، واستمرت تنمو وتغزر لفظا ومعنى، إلى أن جاء دور المتكلمين المقلدين للعجم، فهدموا ما بنى السلف في عمارة اللغة، وأصبحت اللغة العربية مقيدة ومكبولة بأيدي المطرزين المنمقين بالزخرفة البديعية. ثم بعد المحن الطويلة للغة العربية، جاء العصر الحديث على أنقاض النهضة الحضارية الغربية. ولكن العربية واجهت مشكلات عدة من أعداء الإسلام، الذين شنوا أنواعا من الهجوم عليها منذ بداية النهضة الحديثة. فقد ظهرت اللغة العربية ــ على حد قول الشيخ ــ «عربية الوضع إفرنجية الروح، إسلامية اللغة، جاهلية السبك»(٩)، ولمقاومة هذا التيار الفاسد، ارتأى الشيخ أن إعادة اللغة العربية إلى حوزتها الإسلامية تتطلب منا الالتفات إلى الأمور التالية:

■■ المفردات والمصطلحات:

يقرر الشيخ بدهية تكوّن اللغة، فهي تتكون من المفردات والتراكيب، فقال: «إنه لا يتصور اللسان بدون مفردات وتراكيب»(١٠)، فللمفردات والتراكيب دور خطير في إبراز الخواطر والأفكار. فإن جاءت المفردات والألفاظ في الجمل عفوية بدون تصنع وتكلف، وكانت سهلة ميسورة الفهم، أثرت في قلوب الناس، وكانت هي سر عبقرية اللغة العربية، وقد كشف الشيخ النقاب عنه حينما حلل عناصر عربية سلفنا الصالح، فإنهم يختارون في كلامهم «اللغة النقية الصافية، واللفظ الخفيف، والتعبير الدقيق الرقيق»(١١).

وكذلك تؤثر الكلمات التي تصدر عن الصدق والإخلاص في قلوب الناس، يقول الشيخ الندوي: إن الكلمات الصادرة عن لسان الصادق في التجربة الشعورية ستكون - ولاشك - معجزة من الأدب، لأنها أفلاذ كبده، وقطع قلبه، ودموع عينيه، وسوف تملك القلوب وتبكي آلاف البشر قرونا طوالا(١٢). فاللغة المتكونة من الكلمات التي هي أفلاذ الكبد، وقطع القلب، والتي صدرت مع دموع تذرفها العيون، لو اقترنت بها التصورات الإسلامية الصادقة أصبحت لغة إسلامية مؤثرة، وهذا ما وجدناه في العصور الذهبية للغة العربية. وقد رأى الشيخ أن للكلمات درجة حرارة وبرودة (TEMPERATURE)، فلا توضع كلمة ذات حرارة متصاعدة مكان كلمة منخفضة، فضلا عن أن توضع كلمة ذات حرارة مكان كلمة ذات برودة(١٣)، وبهذا تكتسب اللغة حلاوة ولذة، وقد مثل الشيخ لذلك

بقلم: محمد عبدالسلام آزادي

بروايات طويلة من الحديث يرويها أحد الصحابة، أو إحدى الصحابيات، من حوادث حياتهم أو تفاصيل إحدى رحلاتهم.. جاءت فيها اللغة اليومية وبساطتها. والتعبير الصادق عن المشاعر والعواطف.. تُعدّ أسمى نماذج اللغة العربية بعد كتاب اللّه تعالى(١٤).

ومن ثم علينا انتقاء الكلمات التي تحمل المعاني العقدية المعششة في عميق القلب، وتحمل صدق ما يختلج في النفس، في صورة جيدة مرموقة. وقد وجد الشيخ هذه الحقيقة حينما حلل دعاء الرسول ﷺ، الذي ابتهل به إلى اللّه، بعد أن رضخته أحجار أهل الطائف، وكان الدعاء الذي استجلب به رحمة اللّه، واستمطر سحابة كرمه حاوية «كلمات كانت أشد تأثيرا، وأدق دلالة على المعاني، وأقل في المباني، وأحسن وقعا في النفوس وجذبا للقلوب، وسحرا للأذهان والعقول»(١٥).

نعم، إن لكل كلمة مفاهيم ومعاني،(١٦) ولهذا على أهل اللغة أن يختاروا المفهوم الإسلامي، أو ما هو أقرب له، والشيخ الندوي لم يغض النظر عن هذا الجانب، فقد استخدم كلمة «مراوغة» في عبارته مرة، فقال «مراوغة فكرية من فرعون» عندما ذكر الصراع بين سيدنا موسى وبين فرعون، وعلق عليه بقوله: «المراوغة قد تطلق فى المخادعة المذمومة، والمقصود هنا جيئة وذهابا من مكان إلى مكان، والقيام بحركة مفاجئة في اتجاه جديد، كما يفعل اللاعب الماهر مع منافسه، وأقرب كلمة إليه في اللغة الإنجليزية "Dodge" (١٧) وبهذا لفت أنظار اللغويين إلى هذا الجانب، بأن يختاروا المعنى الطيب من معاني الكلمة في سياق الجملة، ليظهر من خلاله المعنى،

■■ إستعمال المصطلح في غير مااصطلح عليه الأقدمون.. يؤدي إلى إساءة في اللغة العربية.

الذي لا تنفر منه الطبيعة الإسلامية في اللغة. واختيار الكلمات وانتقاؤها، في سبيل إضفاء التصور الإسلامي على اللغة محمود ومطالب به، فهو من متطلبات البلاغة والبيان الساحر، وهو من عناصر اللغة الممتازة، ولكن إذا كان الانتقاء لإظهار البراعة الكلامية، ورغبة في التشدق والتفيهق، وإذا كان الاختيار للإتيان بالكلمات الغريبة لإبراز تمكنه المرموق من ناصية اللغة فهو مذموم. لأن هذه الكلمات المصطنعة والمتكلفة، تعكر صفو اللغة، وتنقص سلاستها، وتذهب بهاءها ورواءها(١٨).

إنّ الحياة تتجدد كل يوم، وندخل في اللغة أسماء المستحدثات كل يوم، فهناك لغة تقر هذه الأسماء على هيئتها، بوصفها دخيلة، ولكن اللغة العربية لكونها لغة واسعة غنية بثروتها، يمكن لها أن تستخدم تلك المستحدثات، التي تأتي أكثر ماتأتي عن طريق الغرب في هذا العصر، تستخدمها بطريقتها المألوفة: التعريب والتوليد، ولا تتطرق إلى الدخيل إلا إذا اضطرت إليه(١٩) ففي هذه الحالة نرى الشيخ عوّل في الغالب على قرارات مجمع فؤاد الأول للغة العربية. فإذا وجدهم وافقوا على كلمة في مستحدث ما له أصل عربي واشتقاق صحيح أخذها واستخدمها حيث «لا يلجأ الطالب في استعمال الكلمات الأعجمية أو الدخيلة أو يكون له لسان أخرس في المناسبات العصرية»(٢٠).

إنما اللغة أداة التواصل بين أفراد الأسرة والمجتمع، يعبرون بها عما في ضمائرهم من حب وبغض، في جدهم وهزلهم،(٢١) فقد بذل الشيخ جهودا ليجعل اللغة العربية مرنة، بالاستجابة إلى أساليب عصرية، ولغة مفهومة للقارىء الحديث، وسعى إلى «أسلوب جديد مبتكر»، على حد قوله، لأنه لم يكن أمامه إذ ذاك مثال أو نموذج يجمع بين: قوة الدعوة، والعاطفة الدينية، والقلم القوي البليغ، واللغة العذبة السلسة. إنما كانت لديه إما مقالات أدبية خالصة، مثل كتابات السيد مصطفى لطفي المنفلوطي، ومصطفى صادق الرافعي، والدكتور طه حسين، أو مقالات علمية تحليلية ناقدة، مثل كتابات الدكتور أحمد أمين، وعباس محمود العقاد، والعلامة محمد كرد علي، ولم يكن حينئذ طلع على الأفق العربي نجم كسيد قطب، ومصطفى السباعي، وعلي الطنطاوي.. «لذلك لم يكن لي إلا أن أبتكر أسلوبا وأنهج نهجا جديدا»(٢٢) ومن أبرز مناحي ذلك الأسلوب المبتكر، كما يراها الدكتور عبدالباسط بدر، أن الشيخ الندوي يمسك الخيوط الذهبية الثلاثة: الأدب والفكر والدعوة في آن واحد، ويرى هذه الميزة نادرة جدا في عصرنا بالذات، وأن هذا الأسلوب يتجلى في محمد إقبال وسيد قطب وفي الشيخ الندوي(٢٣).

ومن حلل هذا الأسلوب وجد السر كامنا أيضا في استخدامه الموفق الكلمات القرآنية والحديثية، وروح القرآن والحديث في كلامه المرتجل العادي، فكلماته بليغة دائما، تخرج من قلبه، وتحمل الفكرة بطريق مختصر، وتدعمها بشواهد مناسبة فتصب في وجدان السامع وتملأ قلبه(٢٤)، فقد قال عن هذه الميزة: «التزمت في كتاب قصص النبيين للأطفال أن يكون في لغة القرآن، وتوضع الآيات الكريمة في محالها كالفص في الخاتم»(٢٥).

وأما المصطلحات فنجد الشيخ فيها حذرا جدا، لأنها في نظره: «كالخارطة للسفن والمراكب والطائرات، فأدق خطأ في خطوطها التي تضبط المراكب والطائرات، وتحدد الجهات والغايات، قد يكون سببا لضياع هذه البواخر والطائرات أو انحرافها عن الغاية المقصودة»(٢٦) ففي هذه العبارة أوجز الشيخ الندوي أهمية المصطلحات، وخطورة الخطإ في معانيها، ولفت النظر إلى الاستخدام الصحيح لها؛ لأن الخطأ في وضعها، والتحريف في استخدامها، والزيادة أو النقص في مدلولاتها، واستعمالها في غير ما اصطلح عليه الأقدمون، يؤدي إلى إساءة في اللغة العربية. فلهذا أثنى علي العلماء الذين أنشأوا لغة إسلامية جديدة في الهند، تسمى الأردية، أثنى عليهم لعدم تحريفهم في الكلمات والمصطلحات، التي جاءت عن طريق العربية، فكانوا يهتمون بحفظ كلماتهم (الصوفية والدعاة والمصلحين) بنصها وفصها(٢٧).

ويرى أن المصطلحات مما لا يترجم إلى أية لغة من لغات العالم، مهما بذلت الجهود، وقطعت إلى ترجمتها السبل، فمثلا كلمة «الحكمة» فقد عد الشيخ أمرا مستحيلا ترجمة هذا المصطلح فقال: لا أعتقد أن الكلمة البليغة العربية «الحكمة» من الممكن ترجمتها أو نقلها إلى لغة أخرى(٢٨). فكان من طريق التأصيل الإسلامي للغة الهندية الوثنية، وجعلها إلى اللغة الإسلامية الأردية استخدام تلك المصطلحات الإسلامية، بدون اللجوء إلى الترجمة، فلابد أن نهتم بإبقاء المصطلحات

الإسلامية القديمة على هيئتها وحالها، بدون تحريف في تحديد المعنى، وانحراف في استخدامها. وأما في استخدام المصطلحات العلمية الحديثة، فقد رجع إلى استخدامات المجمعات اللغوية العربية. ولكنه ـ نعتقد لتنبهه التام للفوضى التي تحدث في اختلاف المصطلحات في موضوع واحد ـ اعتمد على مجمع واحد وهو مجمع فؤاد الأول للغة العربية(٢٩).

■■ الأساليب والتراكيب:

وللأسلوب اتجاهان في الدراسة اللغوية الحديثة، اتجاه يعتني بالأبنية اللغوية ووظائفها، حتى تراكيبها داخل النظام اللغوي، وتوظيف الكلمات في الجمل توظيفا صحيحا، وكذلك استخدام الأبنية اللغوية استخداما متقنا في العبارات، واتجاه يهتم بالنظام التركيبي في اللغة، وكل هذا يؤدي دورا خطيرا في تجلية المعنى، الذي يجول في خاطر الشخص(٣٠).

وإذا كان الأسلوب هو مرآة الأديب بل وقد قيل: إن الأسلوب هو الإنسان نفسه،(٣١) وعلى الأديب أن يلتجيء إلى الأسلوب لتجلية فكره، فأسلوب الأديب هو شخصه وفكره، وقد عني الشيخ الندوي بدراسة الكلمات التي لها صلة بالفكر، والتي تحدث تغيير اللغة وتنميتها إلى اللغة الدينية، وذلك حينما أخذ بدراسة النصوص القرآنية والحديثية، ونصوص روايات الصحابة والرواة، والأدباء والكتاب المطبوعين، والشعراء غير المهنيين، واكتشف مكامن السحر في تلك النصوص. ففي كتاب «روائع من أدب الدعوة في القرآن والسيرة» دراسة عميقة متأنية لأسلوب القرآن والحديث.

يقول الشيخ في سر الإعجاز القرآني: إن إعجاز القرآن كامن في ألفاظه وتراكيبه، وفصاحته اللغوية وبلاغته المعنوية، معانيه ومحتوياته(٣٢) وأكد عليه مرارا وتكرارا مع الاعتراف بأن هناك وجوها عدة للإعجاز القرآني،(٣٣) وقد حلل بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، لتذوق الإعجاز القرآني والحديثي، ولتوضيح أسلوب الكتاب والسنة في كتابه «روائع من أدب الدعوة في الكتاب والسيرة»، وتطرق في ذلك إلى أمور تعنى بها الدراسة اللغوية الحديثة، منها:

الكلمات ودورها في تأدية المعنى، فإن كل كلمة تحمل مفهوما معينا، بل تحمل مفاهيم، فاختيار الكلمات الموفق لمفهوم دقيق أوسع يضفي على اللغة جاذبية ولذة، ومعنى واسعا، وقد حلل الآية ﴿**ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة..**﴾ [النحل ١٦: ١٢٥]، فقال: «استحضروا الإعجاز الكامل في قوله تعالى: «ادع» وهو لا يختص بالخطابة، ولا يختص بالكتابة، ولا يختص بالوعظ والنصيحة، وإنما قال: «ادع» الدعوة عامة تشمل هذه المعاني كلها والأساليب كلها.. وقال: «ادع إلى سبيل ربك» ما حدد وما عين شيئا معينا خاصا، فمثلا تدعون الناس إلى الإيمان باللّه وحده، وإلى العقيدة الصحيحة، وتحثون على الصلاة، وتدعون إلى مكارم الأخلاق وإلى الفضيلة، أو تدعون الناس إلى الشعور بكرامة الإنسانية، و«سبيل ربك» يحوي كل شيء، إنه يمتد ويسع الآفاق، ليست هذه الآفاق فقط، إنها آفاق الأديان السماوية، وآفاق الحاجات البشرية والحياة الإنسانية(٣٤).

وقال في قوله تعالى: ﴿**إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر، ولا يغني عنك شيئا**﴾ [مريم ١٩: ٤١]، أولاً تتأملون في قوله «يا أبت» لهجة فيها الرقة، وفيها البر، وفيها التواضع.. فالولد إذا خاطب أباه بقوله: «يا أبت» أثار فيه الحنان الأبوي، وكان يمكن لإبراهيم أن يصيح فيقول: «ياسيدي، أو يقول: ياشيخ الكهان، لأنه كان كاهنا، ولكنه يقول: ياأبت، تعمد إبراهيم هذه الكلمة؛ ليصل بها إلى أعماق قلبه، ويثير فيها الحنان.. فالولد مهما بلغ الغضب من والده إذا ناداه بقوله: يا أبت.. رق وتهيأ لسماع كلامه».(٣٥) ولننظر إلى تحليله لكلمة: «ولا الضالين» من سورة الفاتحة، فإنه حلل المفاهيم التي تحوي هذه الكلمة، وشرح كيف نابت عن تلك المفاهيم في آن واحد، وهذا هو قوة الكلمة التي تؤدي المعني الذهني، في أدق صورة وأوسعها(٣٦).

ومنها دور التراكيب في تجلية المعنى، فقد درس الشيخ ميزة تراكيب الكتاب والسنة، وما أثر عن السلف الصالح، ووضح بماذا تمتاز هذه التراكيب، ولماذا تتفوق على جميع الأساليب العربية. فقد حلل الآيات القرآنية ٤١ ـ ٤٥ من سورة مريم، التي تحمل نصوص دعوة إبراهيم، فقارن بين أسلوب تلك الآيات التي كانت موجهة لأبيه، وبين أسلوب الآيات التي توجه بها إلى قومه، وجاء بنتيجة واضحة المعالم، بأن إبراهيم فرق بين الأسلوبين، أسلوب الدعوة لأبيه، وأسلوب الدعوة لقومه. ففي الأول اتخذ أسلوبا فيه لين، وفيه اقتراح، وفيه تودد، وللكلمات فيها وقع خفيف، والتراكيب فيها إخبار هادىء، «لم يبدأ بالأشياء التي تعتمد على المنطق، وتعتمد على الذكاء النادر، وتعتمد على بحوث علمية أو نظرات فلسفية، إنما اختار الشيء الذي يفهمه الطفل، لأن والده كان في الطفولة العقلية، وإن كان مقدما في السن، فخاطبه كما يخاطب الطفل: (يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغني

■■ وجه الأنظار إلى اتخاذ طريقة القرآن والحديث والتراث الإسلامي الرائعة في الكلام العصري.

عنك شيئا)، وفي الثانية: أسلوب جدال ومناظرة، فيه تحد وتوجيه إلى الأمور الفلسفية، فيه سؤال إنكاري عما يفعلونه: **﴿اتل عليهم نبأ إبراهيم، إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون قالوا: نعبد أصناما فنظل لها عاكفين، قال: هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون﴾** [الشعراء ٦٩-٧١].

وقد حلل التوكيد في قوله تعالى **﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾** [الفاتحة ٤:١]، فوصل إلى النتيجة أنه «كل تأكيد» عرفته لغة العرب التي نزل بها القرآن، واختيرت لتكون لغة الصلاة العالمية.. وفي أبلغ أسلوب من الأساليب البيانية العربية..(٣٧) وهكذا تحمل التراكيب الأفكار في أمانة ودقة، وهي تعطي اللغة السمات التي يقصدها المتكلم.

ومنها إمكانية استثمار الموقف الخطابي في فهم القرآن الكريم، فالموقف الخطابي (Speech Situation) أو الظرف الكلامي (Event of Speech) هو الظرف المعين الذي يتبادل فيه الناس الحديث، وعناصره: الوضع المعين، والمشاركون في الخطاب وأدوارهم والتفاعل بينهم، والرسالة ومفتاحها وطريقة إيصالها(٣٨) والموقف الخطابي يفيد التفاعل بين المقال والمقام، أي يدرس العلاقة بين الكلام ومقتضى الحال، وله عناصر فوق لغوية، وهي الوسائل المعينات التي تساعد الخطيب لتوضيح ما يريده، ما عدا الحدث اللفظي كحركات اليد وغيرها(٣٩).

وإذا نظرنا في معالجة الشيخ الندوي في بعض الآيات القرآنية والنصوص الحديثية، اتضح لنا إمكانية استثمار الموقف الخطابي لفهم القرآن والحديث في العصر الحديث، كما فهمه الجيل الأول. لننظر في تفسيره آيات الدعوة في سورة يوسف (٣٦-٤١) **﴿ودخل معه السجن فتيان، قال: أحدهما إني أراني أعصر خمرا، وقال الآخر: إني أراني أحمل فوق رأسي خبزا تأكل الطير منه، نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين. قال: لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما.... قضي الأمر الذي فيه تستفتيان﴾** فقال: «وقبل أن نشرح هذه الآيات نريد أن نخيل لأذهانكم المحيط الذي قامت فيه هذه الدعوة، والأجواء التي اكتنفتها»(٤٠) فاستحضر المواقف الحاسمة التي مر عليها يوسف عليه السلام، ليبرز أهمية هذه الآيات والمعاني التي يمكن أن تؤدى، وصور لنا الأجواء التي أحاطت يوسف عليه السلام، وأوقفنا جوار تلك الأجواء، التي كثيرا ما نواجهها في حياتنا العادية.

وقال وهو يصور الأجواء، وملامح شخصيات المشاركين في الخطاب القرآني **﴿لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله..﴾**: قال سيدنا يوسف «لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويل هذه الرؤيا»، حتى يطمئنا أنهما لا يحتاجان إلى جلوس طويل، ولا يملان، ولا يأتي السجان فيقول اذهبا إلى مكانكما، ومن الذي أذن لكما بالحضور هنا؟ فقال: **(لايأتيكما طعام..﴾** «يأتيكما» وكانت مصر على جانب كبير من الحضارة، وتنظيم الحياة المدنية، فالمفروض أنه كانت هناك مواعيد مضبوطة للطعام، وكان وقت الطعام قد حضر، فلذلك قال (لا يأتيكما طعام...) ثم هناك نكتة.. وهي أن بين المسجونين وبين الطعام الذي يأكلونه في السجن صلة قوية، فلما ذكر الطعام أثار فيهم الشوق، وانتعشت قلوبهم لسماع ذكر الطعام، فالطعام حبيب إلى كل إنسان، ولكنه إلى المسجون أحب وألذ وأشهى، فوجد فرصة ليقدم إليهم الدعوة إلى التوحيد...(٤١) وهكذا قد فسر النصوص الدعائية التي ابتهل بها الرسول ﷺ بعد أن جرحه أهل الطائف.(٤٢) فالشيخ الندوي بتطرقه إلى اكتشاف العلاقة بين الألفاظ والتراكيب والفكر، يوجه الأنظار إلى اتخاذ طريقة القرآن والحديث والتراث الإسلامي الرائعة في الكلام العصري، وأظهر كيف وأين يكمن السحر في الكلام.

وهناك اتجاه آخر في دراسة لغوية حديثة للأسلوب، وهو الذي يحدد البواعث والأسباب التي جاء لأجلها هذا الأسلوب. وقد عني الشيخ أيضا في هذا المجال، ففي كتاباته عن جمال الأدب وروعته، أشار إلى سر الأسلوب الجذاب، الذي يمتلكه القرآن والحديث، وبعض روايات الصحابة، وأصحاب السير، والأدباء المطبوعين، وقد دعا مرارا وتكرارا إلى اتخاذ ذلك الأسلوب مع صياغة عصرية. يقول «والذين اتخذوا الأدب سلاحا لهدم الخلق والعقيدة لابد أن نقاومهم بأدب قوي دافق بالحياة، وكتابة أصيلة مشرقة الديباجة، وأسلوب من أحدث الأساليب وأقواها، ولا يتأتى ذلك إلا بالتضلع من الأدب القديم ومصادره، ونقد الأساليب الجديدة، والاطلاع الواسع عليها، والممارسة للكتابة والإنشاء»(٤٣).

إذن هو ينادي أصحاب التربية وأولي الألباب والآداب أن يتسلحوا بالأسلوب

القوي، على طراز أحدث وأسمى، بالرجوع إلى الأدب القديم ومصادره، واكتساب الأساليب الجديدة في الكتابة والخطابة، ويحث على اتخاذ مخططات دقيقة، لإعادة الثقة في شبابنا الحيارى، وذلك المخطط «يحتاج إلى أسلوب جديد في الحديث مع الشباب، يحتاج ذلك إلى الحكمة والموعظة الحسنة، ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾، يحتاج إلى أن تكون عندنا أقلام قوية بليغة، وأن يكون عندنا تلك المقدرة البيانية، والطلاوة الأدبية، وحلاوة التعبير، التي لا يمكن لدعوة أن تشق طريقها إلى الأمام، وأن تنفذ في عقول الشباب، وفي نفوسهم عن غير هذا الطريق.(٤٤)

وهنا يذكر الاسباب التي تكسو الأسلوب الحلاوة والجذب، منها القوة في الكتابة، واكتساب المقدرة البيانية، والتزين بالطلاوة والأدبية، والتعبير الحلو. وحينما حلل سحر القصائد للشاعر محمد إقبال، أبرز أن سحرها مكنون في العقيدة التي كان يحملها، والعاطفة التي شرح صدره لها، والنور الذي تمكن في قرار قلبه، حيث يقول: «إن شاعرنا العظيم محمد إقبال كان - وقد شهدت ذلك بعيني وأشهد بذلك بجوار المسجد - إذا ذكرت المدينة - فضلا عن الرسول ﷺ - دمعت عينه ولم يتمالك...»(٤٥) وعدّد الفضل الذي جعل لغة إقبال عذبة، فذكر منه قوة العقيدة، وتحديد الهدف في الكتابة وقوة العاطفة كل هذه العوامل أدت دورا فعالا في تنمية الأسلوب، وتزيينه بزينة الإسلام. ثم في إشارته إلى اتخاذ أحدث الأساليب العصرية في الحديث، والديباجة المشرقة في الكتابة، والمقدرة البيانية، والحلاوة في التعبير، والكلام النابع عن المشاعر والعواطف الصادقة، والتعبيرات الجميلة البسيطة الأخاذة تطلع على أسرار الأسلوب المرموق في اللغة العربية.

■■ عناصر تنمية اللغة:

يرى الشيخ أن جميع اللغات تتغير إلى الازدهار بعناصر أربعة(٤٦)، وبالتالي تعد هذه العناصر القوى الداخلية في التأصيل الإسلامي للغة العربية، والعناصر هي: الضرورة، العاطفة، الاندفاع، النفع والفائدة.

ونحن هنا نحاول أن نحلل هذه العناصر على نهج الشيخ، أولا: الضرورة، فهي تنجلي عنده في اتخاذ جماعة من الناس اللغة العربية وسيلة لهم، في حركتهم ودعوتهم وثورتهم، حتى لايجدون سواها وسيلة، ولا يعدون غيرها أداة لإيصال أفكارهم إلى العامة. ففي عصر الانحطاط لم تكن للجماعة المسلمة حركة قوية دينية أو سياسية أو اجتماعية، ولا دعوة وثورة تجبرهم على اتخاذ اللغة العربية وسيلة مهمة، يرى الشيخ أن بين الحركة واللغة الصلة القوية الدائمة... «فإنها أكبر سلاحها، وأسهل وسيلة إلى خطاب العامة والتوصل إلى عقولهم وقلوبهم. وللُّغَةُ إذا رافقت حركةً قوية وسارت في ركبها، فإنها تقطع أحيانا مسافة قرون - لسعتها ورحابة صدرها، ورقيها وازدهارها وتأثيرها وقوتها - في أعوام وشهور، وتستفيد منها ما لاتستفيد من رعاية الحكومات وإشراف المؤسسات التعليمية وعنايتها بها»(٤٧) وأكبر دليل على ذلك ازدهار اللغة العربية بعد خمولها في النصف الأخير من القرن التاسع عشر، حينما بدأ الشعب العربي الإسلامي طرد الاستعمار، وبدأت الحركة الدعوية والثورة العسكرية الدينية في مختلف البلدان الإسلامية، واتخذ العرب مرة ثانية لغتهم وسيلة مهمة لإيصال الدعوة التحريرية إلى عامة الناس، «حتى عادت اللغة العربية تنشط وتنهض، وتسلك سبيل الحياة في حماس وقوة.»(٤٨)

وخير مثال له نشأة اللغة الأردية، فإنها بذرت نواتها في القرن التاسع الهجري، إلا أن ثمارها أينعت، وساقها قويت، وأصبحت لغة هندية إسلامية، بعد أن اتخذها الإمام أحمد بن عرفان الشهيد في الخطب والتواصل، لما وجد فيها سهولة، فكانت أداة وحيدة في ثورتهم الإسلامية، ودعوتهم الدينية، ورسائلهم الإصلاحية، وكانت واسطة بين أهداف الحركة والقائمين عليهم وبين عامة من الناس(٤٩).

وأما العاطفة فتتمثل في استخدام اللغة للتعبير عما يختلج في النفوس، ويتهيج في القلوب، ويشتعل في الضمائر، فالذين يكتبون متشبهين بالمثلين تنعدم لغتهم من العاطفة، لأن المثلين «قد يمثلون الملوك فيتصنعون أبهة الملك ومظاهره، وقد يمثلون الصعاليك فيتظاهرون بالفقر، وقد يمثلون السعيد، وقد يمثلون الشقي، من غير أن يذوقوا لذة السعادة، أو يكتووا بنار الشقاء، وقد يعزون من غير أن يشاركوا المفجوع في أحزانه، وقد يهنئون من غير أن يشاركوا السعيد في أفراحه..»(٥٠) ومن ذلك ينطمس نور لغتهم. وللعاطفة أيضا نصيب في حياة اللغة ورقيها وازدهارها، فإذا كانت عامرة بالدين، ومليئة بالروح الإسلامية، كانت الكلمات التي تدل على المدلولات الدينية في مكامن القلب تتشوق للخروج عبر لسانه:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما
جعل اللسان على الفؤاد دليلا(٥١)

وخير معين على تجلية العاطفة الصدق، فاللغة العربية تكون في مائدتها الإسلامية إذا صدرت الكلمات وفق ما في ضمائر

■■ أبدع الشيخ حينما صور الكلام غير النابع عن اللقلب أو العقيدة.. بالصورة التي لاحركة فيها ولاحياة.

المسلمين، من الإيمان وحرارته، ومن العقيدة وشلالها، وفي ذلك يقول الشيخ الندوي: «فإذا كان هؤلاء المتحدثون (من العرب) لايرضي ضميرهم بما يقولون ، ويعرفون أن هذه الكلمات في غير محلها، وإنما هو كله مصالحهم المالية، فيالانحطاط النفس البشرية، ويالرخص السلعة الغالية، ويالضيعة الكلمات العامرة بالمعاني، ويالشقاء اللغة العربية بأهلها!!»(٥٢) والاستجابة للعاطفة الصادقة، وترك النفس المفعمة بالإيمان على سجيتها يضفي على اللغة الرونق والبهجة واللذة، وهذا هو سر لذة بعض الروايات الطويلة، التي يرويها الصحابة الرواة عن مواقف حياتهم.

وأما العنصر الثالث فهو الاندفاع، ولم يفسر لنا الشيخ ما هو الاندفاع، وما هو المدلول الذي أراد بهذه الكلمة، فإذا كانت مطاوعة «دفع» ـ كما هو من معانيها ـ فيقال: دفعه فاندفع،(٥٣) فمعناه أن تخرج الكلمات والعبارات استجابة لما يدفعه قلبه للكلام، فهو استجابة العاطفة والمسايرة مع استجاشة النفس، فلا يتكلم إلا عندما تحرضه عاطفته، ولا يكتب إلا من دافع نفسه له. ويظن الباحث أن هذا المعنى يطابق المقام، فإن الأديب أو الشاعر مهما حاول التنميق والتحسين والتحبير، فإنه يبقى فاشلا فيه إذا لم يستجب للدوافع النفسية التي يحس بها في قرارة قلبه. فإن كان من الدوافع الخارجية، كالتكسب وطلب الشهرة فاللغة لا تكتسب تلك الروائح التي تخرج بها الكلمات عندما تختلط بعبير القلوب، وفي هذا المعني يقول الشيخ عندما وضح السبب لفقدان الجمال التعبيري عند الكتاب أهل التصنع: «كان غالبها (الكتابات) يُكتب بالاقتراح من ملك أو وزير أو صديق، أو لإرضاء شهوة الأدب، أو تحقيق رغبة المجتمع، أو حبا للظهور والتفوق، وهذه كلها دوافع سطحية، لاتمنح الكتابة القوة والروح ولا تسبغ عليها لباس البقاء والخلود، ولا تعطيها التأثير في النفوس والقلوب، والفرق بينها وبين الكتابات المنبعثة من القلب والعقيدة كالفرق بين النائحة والثكلى...»(٥٤)

لقد أبدع الشيخ حينما صور الكلام غير النابع عن القلب والعقيدة، بالصورة التي لا حركة فيها ولا حياة، وأما الكلام النابع من قرارة النفس فهو كالإنسان الحي، الذي فيه حركة وحياة، وأروع من ذلك تشبيهه المتكلم بدافع خارجي، بالنائحة التي تتباكى على الفقيد، فإنها لا تبكي عن شعور حقيقي بالحزن والمصيبة التي حلت بها، بل تبكي لأنها تتقاضى النقود من أصحاب الفقيد، فلا يؤثر بكاؤها في أحد من الناس، وأما الثكلى التي تبكي على فقيدها لما فجعها موت فقيدها، ولما تكابد من آلام وحسرة ولما تخرق الأحزان نياط قلبها، فبكاؤها يبكي الحاضر ويشجي السامع. إذن إن اللغة تتطور وتترقى إذا كانت تصدر عن اندفاع، وإذا كان الاندفاع مع العقيدة والإيمان تتزين اللغة بذلك الرونق، وبهذا تصبح اللغة دينية.

والعنصر الرابع هو النفع والفائدة، فلما كانت اللغة العربية نافعة لأهل البلاد المفتوحة، حيث وجدوا لغة تحمل الدين والحضارة الجديدة، وكانت أداة مهمة للتواصل وتبادل الآراء، والاتصال بالدوائر الرسمية، ازداد إقبال العجم على اللغة العربية، وإذا لم يجد أحد في اللغة العربية فائدة تذكر، لا من ناحية الدين ولا من ناحية الحركة الإسلامية والدعوة الدينية، ولا توجد هناك نفوذ عربية في المملكات الإسلامية، انحسرت اللغة العربية عن دورها، وأصبحت اللغة مقصورة على الذين يحترفون الأدب، ويمتهنون الإنشاء العربي حيث «يأتي على الناس زمان لا يفهمون فيه من كلمة الأدب إلا ما أثر عن هذه الطبقة من كلام مصنوع وأدب تقليدي، لا قوة فيه ولا روح ولا جدة ولا متعة..»(٥٥)

■■ الخاتمة:

هذه هي آراء الشيخ الأمام أبي الحسن علي الحسني الندوي اللغوية، وعلى هذا الأساس ألف الشيخ كتبه لتعليم اللغة العربية، وعليه تقوم ندوة العلماء بلكناو ـ الهند بتدريس اللغة العربية، لهذا نرى تميزا واضحا في عربية المتخرجين في الندوة، في كتابتهم وخطابتهم. وهذه النظريات جديرة بالاهتمام من قبل الباحثين واللغويين، ويمكن إجراء البحوث اللغوية بالمقارنة مع النظريات اللغوية الحديثة. أسأل اللّه المولى الكريم أن يتغمده اللّه برحمته الواسعة، ويجعل مجهوداته في ميزان حسناته، يوم لا ينفع الإنسان مال ولا بنون إلا من أتي اللّه بقلب سليم.

■■ المراجع والمصادر:

محاضر بالجامعة الإسلامية العالمية ـ شيتاغونغ، بنغلاديش.

(١) إبراهيم مدكور، اللغة المثالية، مجلة مجمع اللغة العربية المصري، المجلد ٧،

السنة ١٩٥٣، ١٤.

(٢) ينظر أحمد حسن الزيات، لغتنا في أزمة، مجلة مجمع اللغة العربية، المجلد ١٠، السنة ١٩٥٨م، ٤٦. ومحمد الغزالي، تراثنا الفكري في ميزان العقل والشرع، (فيرجينا : المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٩٨٦م)، ١٨٩-١٩٣.

(٣) أنور الجندي، أسلمة المناهج والعلوم، (القاهرة : دار الاعتصام، ١٩٨٦م)، ٩٨-١١٠.

(٤) أبوالحسن الندوي، مختارات من أدب العرب، مقدمة، (الهند : مطبعة دار العلوم - ندوة العلماء، ط١، ١٩٤٠م)، ٣، وأبوالحسن الندوي، القراءة الراشدة، (الهند : مطبعة ندوة العلماء، ١٩٨٨م)، ١/٥.

(٥) الندوي، مختارات من أدب العرب، مقدمة الطبعة الأولى، (الهند : مطبعة ندوة العلماء، ط١/، ١٩٦١م)،٣.

(٦) الندوي، في مسيرة الحياة، ٢/٢٢٢.

(٧) أبوالحسن الندوي، نظرات في الأدب، (دمشق : دار القلم، ط١، ١٩٨٨م)، ٢٨.

(٨) هذا معنى حديث رواه البيهقي في شعب الإيمان من طريق يونس بن محمد عن أبيه قال : قال رجل يا رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أفصحك! ما رأينا الذي هو أعرب منك! قال صلى الله عليه وسلم : حُقَّ لي : فإنما أنزل القرآن علي بلسان عربي مبين. ينظر : السيوطي، المزهر، تحقيق : جاد المولي والأخران، (بيروت : المكتبة العصرية، ط١/. ١٩٨٨م)،١/٣٥.

(٩) الندوي، القراءة الراشدة، ١/١٠.

(١٠) أبوالحسن الندوي، المدخل إلى الدراسات القرآنية، (الهند : المجمع الإسلامي العلمي، ط٢، ١٩٩٤)، ١٣.

(١٢،١١) الندوي، نظرات في الأدب، (دمشق : دار القلم، ط١/، ١٩٨٨م)، ٢٨.

(١٣) أبوالحسن الندوي، شخصيات وكتب، (دمشق : دار القلم، ط١، ١٩٩٠م)، ٧.

(١٤) الندوي، في مسيرة الحياة، ١/١٤٢.

(١٥) الندوي، نظرات في الأدب، ٢٨.

(١٦) ابن طباطبا، (محمد بن أحمد)، عيار الشعر، تحقيق : محمد زغلول سلام، (مصر : مكتبة المعارف، د.ت)، ٥-٦، وأيهم عباس حمودي القيسي، شعر العقيدة في عصر صدر الإسلام، (بيروت : عالم الكتب، ط١/، ١٩٨٦م)، ٣١٦.

(١٧) أبوالحسن الندوي، روائع من أدب الدعوة في القرآن والسيرة، (الكويت : دار القلم للنشر والتوزيع، ط٤، ١٩٩٤)، ٥٩.

(١٨) الندوي، نظرات في الأدب، ٢٨-٢٩.

(١٩) صبحي صالح، دراسات في فقه اللغة، (بيروت : دار العلم للملايين، ط/١٠، ١٩٨٣)، ٣٢٠-٣٢١.

(٢٠) الندوي، القراءة الراشدة، ١/١١.

(٢١) الندوي، مختارات من أدب العرب، مقدمة الطبعة الأولى، ٥.

(٢٢) الندوي، في مسيرة الحياة، ١/١٧١.

(٢٣) الندوي، نظرات في الأدب، ٦.

(٢٤) المرجع السابق. ٨.

(٢٥) الندوي، في مسيرة الحياة، ١/١٤٥.

(٢٦) الندوي، نظرات في الأدب، ٧، وأبوالحسن الندوي، كلمة الرئاسة للندوة العالمية للأدب الإسلامي، الأدب الإسلامي فكرته ومنهاجه، (الهند، مطبعة ندوة العلماء، ط/١، ١٩٨٥م)، ٤٢-٤٣.

(٢٧) الندوي، في مسيرة الحياة، ٢/٢٢٢.

(٢٨) الندوي، روائع من أدب الدعوة في القرآن والسيرة، (الكويت : دار القلم للنشر والتوزيع، ط/٤، ١٩٩٤م)، ١٥.

(٢٩) الندوي، القراءة الراشدة، ١/١١.

(٣٠) عبدالمنعم خفاجي، والسعدي فرهود، وعبدالعزيز شرف، الأسلوبية والبيان العربي، (القاهرة : الدار المصرية اللبنانية، ط١، ١٩٩٢)، ١٣.

(٣١) قاله جورج بوفون، ينظر: صلاح فضل، علم الأسلوب، (بيروت : دار الآفاق الجديدة، ١٩٨٥م)، ٣٦.

(٣٢) الندوي، المدخل إلى الدراسات القرآنية، (الهند : المجمع الإسلامي العلمي، ط/٢، ١٩٩٤م)، ٣٢.

(٣٣) المرجع نفسه، ٣٤-٣٥.

(٣٤) الندوي، روائع من أدب الدعوة، ١٤.

(٣٥) المرجع نفسه، ٢٠-٢١.

(٣٦) أبوالحسن الندوي، تأملات في القرآن الكريم، (دمشق : دار القلم، ط١، ١٩٩١م)، ١٢-١٣.

(٣٧) المرجع نفسه، ١١.

(٣٨) أحمد شيخ، موقع اللغويات في إسلامية المعرفة، (بحث مقدم للندوة العلمية بالجامعة الإسلامية بماليزيا، ١٩٩٦م)، ٣٣.

(٣٩) Richard. Longman Diction-ary of Linguistics نقل عنه الدكتور أحمد شيخ عبدالسلام، موقع اللغويات في إسلامية المعرفة، ص٣٣.

(٤٠) الندوي، روائع من أدب الدعوة في الكتاب والسيرة، ٣١-٣٢.

(٤١) الندوي، روائع من أدب الدعوة، ٣٩-٤١. وللتفصيل يراجع من الكتاب، ٣٠-٤٣.

(٤٢) الندوي، نظرات في الأدب، ٣٦-٤١.

(٤٣) الندوي، نحو التربية الإسلامية الحرة، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط/٥، ١٩٨٧م)، ٩٤-٩٥.

(٤٤) المرجع نفسه. ١١٠.

(٤٥) الندوي، نظرات في الأدب، ١٠٥.

(٤٦) الندوي، في مسيرة الحياة، ٢/٢٢٢.

(٤٧) الندوي، في مسيرة الحياة، ٢/٢٢٢.

(٤٨) إبراهيم مدكور، اللغة المثالية، ١٣.

(٤٩) الندوي، في مسيرة الحياة، ٢/٢٢٢-٢٢٣.

(٥٠) الندوي، نظرات في الأدب، ٣٢.

(٥١) بيت منسوب إلى الأخطل، وليس موجودا في ديوانه، ينظر: جماعة من العلماء، شرح العقيدة الطحاوية، (بيروت: المكتب الإسلامي، ط٨،١٩٨٤م)، ١٨٤.

(٥٢) أبوالحسن الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، (الرياض: الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية الإسلامية، ط/٣، ١٩٨١م)، ٣٦٠.

(٥٣) المعجم الوسيط، مادة د.ف.ع (مصر: مجمع اللغة العربية، د.ط.د.ت).

(٥٤) الندوي، نظرات في الأدب، ٣٢.

(٥٥) المرجع نفسه، ٢١.